الزلزال

قصة بقلم مصطفى الزيات

((الى المثقفين العرب))

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حينما قال سعيد ، وقد تزايد قلقه وبدا واضحا في ملامحه :

ـ انهم يتوقعون حدوث زلزال في المنطقة .

فقاطعه فؤاد بهدوء متصنع :

ـ ليتوقعوا ما يتوقعون ... هذا شأنهم ...

ثم حمل كأسه وتابع مبتسما ، وهو ينقل بصره من وجه الى وجه ، ولما التقت عيوننا ابتسمت :

ـ كأس الزلزال .

وشرب . وشربت . وشرب الاخرون . ثم أضاف بلهجة خطابية :

ـ ومن لم يمت بالزلزال مات بغيره .

وضحك . وضحك الاخرون . واكتفيت بالابتسام . ثم عاد كل منهم الى اوراقه يحملها ، يحملق فيها ، وينتظر . بينما قبع سعيد في مقعده جانب المذياع وأجما .

انهم يتوقعون ...

وشعرت بدبيب الحرارة في جسمي . أغمضت عيني وحركت رأسي يمينا وشمالا وببطء ، ثم حللت قليلا ربطة عنقي ، وفككت الزر الاول من قميصي ، وألقيت رأسي على مسند المقعد ونظرت الى السقف.

كان يجب أن لا أسهر ... ولكن ؟

وتزايد شعوري بالضيق . تناولت سيجارة . أشعلتها . أخذت منها نفسا . سعلت مرتين . وعاد بصري الى السقف .

كان يجب أن لا أسهر ...

وابتسمت بيأس . لقد وقعت ثانية في حبائل المحاكمة . حاولت بجهد كبير أن أتخلص منها ولكن دون جدوى .

لم لا أجعل المحاكمة ذاتها موضوع محاكمتي الليلة ؟

كنت في اخر كل ليل أناقش ـ قبل أن أنام ـ مع نفسي أعمالي وتصرفاتي خلال اليوم ، أقيمها ، وأتخذ قرارات بمتابعة الاعمال التي أظنها حسنة ، وبالاقلاع عن الاعمال التي تبدو غير مرضية . وكنت أسمي هذا الحوار بيني وبين نفسي محاكمة .

وزيادة عن ان قرارات هذه المحكمة لا تملك صفة الالزام المادي ، فان المثل القائل ((كلام الليل يمحوه النهار)) كفيل بتعطيل الزامها الادبي ايضا ، ولا أذكر انني استطعت في يوم ان أنفذ ـ ولو بعضا ـ مما عاهدت نفسي عليه ، علما بأن المحكمة تراعي ـ في اصدارها قراراتها ـ حالتي النفسية والمادية والاجتماعية ، وتميل الى العاطفة اكثر بكثير من ميلها الى العقل ، ولعلها تفعل ذلك دفاعا عن نفسها ، وابقاء للخيط الواهي الذي يصلنا مع بعضنا والذي بيدي فقط حق قطعه ، ولذلك كانت قراراتها أقرب الى توصيات الطبيب الخاص ـ الذي يخشى فقد وظيفته ـ منها الى أحكام القاضي .

وأذكر ـ على سبيل المثال ـ انني في يوم من الايام ـ وفي آخر الليل ـ قطعت على نفسي عهدا بالاقلاع عن التدخين ـ بسبب ضيق شديد في صدري ـ وأتلفت كل ما تبقى في علبتي من سجائر . وحينما استيقظت ـ بعد ظهر اليوم التالي ـ أشعلت أطول عقب عثرت عليه بين الاوساخ . وعملا بنصيحة أحد الاصدقاء بدأت أدخن نوعا من السجائر الاجنبية الفاخرة المعطرة .

ورغم تأكدي من عدم جدوى هذه المحاكمة ، ورغم قراري بالغائها، كنت أنصح كل انسان قلق ، بالالتزام بعقدها واتباع أوامرها ، مؤكدا له ايماني بأن النفس البشرية ـ في صفائها وصدقها ـ مصدر كل خير . ثم ان المحا ....

ولكن محاكمة ... المحاكمة ... محاكمة ... وشعرت بالكآبة . حملت كأسي وشربت منها جرعه كبيرة ، ورحت أراقب الوجوه ، الباسمة والعابسة . الايدي التي تمسك الاوراق وتصفها بعصبية ظاهرة . الكؤوس التي تفرغ وتملأ وتفرغ وتملأ و ... الزجاجات التي تنتقل من السطل المليء بمجروش الجليد الى الطاولة ، الى الارض تحت الطاولة ، بعد فراغها . النقود التي تنتقل من زاوية الى أخرى ، من زوايا الطاولة الخضراء ، تلاحقها العيون ، كل العيون المحمرة ، الذابلة ، والمنتفخة . والوقت يمضي ، والصمت مخيم ، يخترقه صوت المذياع الخافت ، وصوت فريد الذي كان يردد مع المذياع :

((هل رأى الحب سكارى مثلنا ، كم بنينا من خيال حولنا)) . وقهقهرغبه جامحة في ترديد ما يردده فريد. ثم بدأ التكرار يضجرني، ويزيد من شعوري بالاسر .

أيقظني من غيبوبتي صوت سعيد الذي كان أشبه بالصراخ :

ـ انهم يؤكدون ...

فقاطعه فؤاد صائحا :

ـ هؤلاء يتوقعون ، وهؤلاء يؤكدون ، وهؤلاء يستنكرون ، وهؤلاء يستبعدون .

ثم تابع متسائلا بعد فترة صمت قصيرة ، موجها حديثه الى سعيد :

ـ فمن تصدق ، ومن لا تصدق ؟

أجابه سعيد :

ـ لقد حصلت زلازل كثيرة في اسيا وفي افريقيا ، وكانت غير متوقعة ... على كل حال يجب أن نستعد .

وساد الصمت ، وظهر صوت المذياع واضحا ، وعاد فريد يردد مع المذياع :

((أنا من ضيع في الاوهام عمره ، نسي التاريخ ، أو أنسي ذكره)) .

ودون أن أنهض ، خلعت سترتي ، ووضعتها على مقعد بجانبي ، ونزعت ربطة عنقي ومسدتها ، ووضعتها فوق سترتي ، ثم فككت جميع أزرار قميصي ، وتمنيت لو أتخلص منه نهائيا ، ومن حذائي ، وجواربي ، وبنطالي ، تمنيت لو أتمدد على الارض ، وألصق خدي بالبلاط . وسرت في صدري رعشة باردة . سأكون سعيدا بلا شك ... ولكن ؟

وخطر ببالي ـ توا ـ أن أطردهم جميعا : فؤاد . أحمد . فريد ونبيه ، وحتى سعيد . ونظرت الى سعيد ، الذي لا يزال قرب المذياع ، وقرأت في ملامحه اضطرابا وقلقا عميقين ، وتلاقت عيوننا برهة ، فاضطربت . وشعرت بنظرته تخترقني، تعريني ، تكشفني ، تعرف ما يدور بخاطري ، وشعرت بالغربة ، ورفعت رأسي الى

السقف ، ومشيت ببصري على طول السلسلة المعدنية التي تحمل القنديل الكهربائي ، ثم شغلت نفسي بالبعوض الذي يهوم حول المصباح ، ورحت الاحق ـ ببصري ـ أكبر بعوضة ، الى أن اصطدمت بالمصباح بقوة ، وسقطت في منتصف الطاولة الخضراء ، فوق النقود ، دون أن يأبه لها أحد .

أعلن المذيع تمام الثالثة صباحا ، وتمنى للجميع ليلة هادئة ، وأحلاما هانئة ، وسكت .

وساد السكون . نهض سعيد وهو يقول :

ـ سأذهب .

قال فؤاد :

ـ انتظر ... كلنا ذاهبون .

أجاب سعيد ، وهو يمشي باتجاه الباب :

ـ علي أعمال كثيرة غدا .

علق أحمد قائلا :

ـ عمل . عمل . العمر ينتهي والعمل لا ينتهي .

أوصلت سعيدا الى الباب ، ورحت أذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، ثم اقتربت من النافذة ونظرت الى السماء الملأى بالنجوم المرتجفة . كان القمر هلالا . بحثت عن الثريا ، والكرسي ، والدبين ، ولم أبال حين لم أجد أيا منها . استنشقت كمية كبيرة من الهواء البارد ، وعدت الى الطاولة . حملت كأسي وشربتها حتى آخرها . أراد فؤاد أن يملأها فمنعته قائلا :

ـ لقد اكتفيت .

فقال متسائلا :

ـ ما بك اليوم ؟ أراك على غير عادتك . لا تلعب . لا تشرب ، ولا تتكلم . بم تفكر ؟

أجابه فريد ضاحكا :

ـ بليلاه ..

ثم تابع :

ـ لقد عاد زوجها ... وما عادت تستطيع الخروج بالليل .

ثم نظر في وجهي وقال مبتسما :

ـ تزوج يا أخي ... تزوج .

فابتسمت ، وجلست بهدوء . وقال لي أحمد :

ـ لا تصدقه .

أجابه فريد :

ـ أنا طبيب .

فرد عليه أحمد :

ـ وأنا مجرب .

قال فريد ، موجها كلامه الى فؤاد :

ـ ما رأي المحامي ؟

قال فؤاد :

ـ القضية نسبية ...

واحتدم النقاش حول النساء . هذا يحب الشقراوات ، وذاك السمراوات ، والثالث البدينات ، والرابع يحبهن كيفما كن ... ومن أجلهن هجرت أهلي .

ليلى . سعاد . جورجيت . و (...) . لا ، لا يجب أن أقرنها بهن .

طبيب . محام . أستاذ . فنان . ضابط . وغيرها . كلمات كنت أحملها ـ في صباي ـ مدلولات كبيرة ، وكان لها في أذني وقع كبير ، وكانت تثير في نفسي شعورا بالعظمة والرهبة . ونقلت بصري بين الوجوه وابتسمت .

خاطبني فؤاد قائلا :

ـ ألن تكف الليلة عن الابتسام ؟

فضحكت ، ونهضت .

دقت الساعة الكبيرة ثلاث مرات . خاطبها فريد منهكما :

ـ على مهلك .

نظرت الى الساعة الكبيرة ـ التي ورثتها عن والدي ـ بعدم اكتراث ، وتأملت صورتي المعلقة بجوارها بامعان . وبحثت ـ لولعي بالمقارنات ـ عن الفوارق بيني وبين الصورة ، فلم أجد الا فارقا واحدا : الابتسامة ذاتها ، الثياب الانيقة ذاتها ، الاطار المزخرف الجميل المستورد هو ذاته أيضا . غير ان الاطار الذي أعيش فيه أكبر قليلا من الذي يحيط بالصورة ويمنعها من الحركة تماما .

خلعت حذائي ـ بعدما خرج الجميع ـ وجواربي ، وقميصي ، ثم تمددت على الارض ، وشعرت ببرودتها تدب في جسمي ، وبدأ شعوري بضربات الساعة المتتابعة ، يضعف ويضعف حتى كاد يتلاشى .

واهتزت الارض ، اهتزت بعنف ، وهززني اهتزازها ، كما هز جميع الاشياء ، فبدأت تتساقط ، حولي وفوقي ، ونهضت أترنح ، وانطلقت أعدو مشدوها مذهولا يلاحقني الغبار ، والدخان ، والنار التي تلتهم الاشياء فتتهاوى ، فأسمع صوت ارتطامها بالارض ممزوجا بنداءات الاطفال المبحوحة . وأتعثر ، وأنهض ، وأعدو ، وترتفع الاصوات وتشتد ، وترتفع ألسنة النار وتزداد ، وتتلون بألوان مختلفة ، صفراء ، زرقاء ، حمراء ، مختلطة .

ثم بدأت تتقلص وتتقلص حتى اختفت ، وهدأ الغبار ، وارتفعت سحب الدخان الى السماء ، مخلفة المدينة وراءها كوما من الانقاض والحطام .

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٢٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لعواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠

الدم والماء

ـ ماذا تكتب تسخر من لغوك حتى الورقات
موطئة أبياتك .. موطوء مجد الابيات ..
في الساحة نحـــن ، فمن يسمع في الساحـــة
صوت الكلمات
ـ عذرا فأنا لا أملك الا هذي الابيات ..
أعزل ـ لم أتدرب ـ في ساح لا أعرف الا طعم القات
أتفرج ـ رغما عني ـ أتسكع ميت الخطوات
في شارعنا سبع حمامات خرساء ..
سبعة أطفال دون سماء ..
الصمت صليب من ذهب ..
رمح من قصب ..
سيف من خشب ..
وقتيل ينزف من جنبيه الماء
ماء .. ماء
موتك ماء ..
موتي ماء ..

نهوي في الظل بلا صوت ..
ندفن في الوحل بلا موت ..
نسقط لا في الساحة .. لا في الخندق ..
نقتل لا تحت البيرق ..
نعرى ونجوع ..
خيمتنا قبر دون شموع ..
نتسول في بغداد ، وفي بيروت وفي عمّان
باسمك يا وطني نبسط أيدينا في الحان ..
ويموت بلا اسم منا الالف ..
حتف الانف ..

* * *

لم نتعلم شيئا .. يا نجمتي الخضراء
مذ لفظتنا الصحراء ..
فلنتعلم كيف نموت ..
فلنتعلم كيف نموت ..

الموصل — **أرشد توفيق**

وعلى الضفة الاخرى ، جلست والـــدتي تمسح جراح أختي وحروقها بقطعة مبللة من قميص قديم .

لملمت أختي ـ حينما التقت عيوننا ـ ثوبها ، وغطت مـــا انكشف من صدرها ومددت أطرافه فوق ساقها ، فشعرت بالغربـــة والضياع ، ورفعت رأسي الى السماء . كانت نجمة الصبح كبيرة ، كبيرة ، متلألئة ووحيدة .

قالت أمي ، وهي تضـع التراب الاحمر فوق حروق أختي :

ـ تهدم بيت أبيك .

أجبتها ، وأنا أبلل قميصي الداخلي لامسح به ذراعي المجروحة :

ـ سأبنيه ، وسأعيش فيه ... معكم .

ونظرت الى المدينة . كانت هادئة تماما ، بلا صوت ، بـــلا حركة ، بلا لون . ما عدا بقايا من سحب بيضاء شفافة من الدخان ترتفع الى السماء .

ومن وراء الافق ، بدأت الشمس تخرج شيئا فشيئا ، حتى ظهرت كاملة في صفحة السماء ، وغمرت أشعتها الاشياء ، وصبغتها بلون وردي رائع ، فتراءت لي الانقاض ورودا ورياحين ، والخـرائب حدائـــق .

منذ زمن بعيد لم أرَ شروقا ، منذ زمـــن بعيد لم أر الشمس الا وقت غروبها ، باهتة ، صفراء ، تحتضر وتختفي شيئا فشيئـــا وراء الافق ، ويحل الظلام ، حيث كنت أعيش .

ما أوضح الفرق بين مولد الشمس واحتضارها !..

قلت لامي من غير أن أنظر اليها :

ـ ساعود .

ومشيت بين الانقاض أتأملها ، وأنقل بصري من الانقاض الى الايدي التي تعمل بجد ، الى السواعد التي تحمل بصبر ، الى الوجوه السمراء المغسولة بالعرق الذي يتقاطر من الجباه غزيرا ، لامعا تحت أشعة الشمس ، الى الافواه المطبقة بعناد ، الى الاقـدام الملتصقـة بثبات في الارض ، الى مواقع قدمي ، الـــى الشمس التـــي ترتفـع وترتفع بكبرياء ، فيزداد الوضوح ، ويزداد معه شعوري بالوجود .

وقفت على أنقاض منزلي ، ونظـــرت الى الطاولة الخضراء المحطمة ، الى الكؤوس المتناثرة ، الى الثياب التي كانت جميـلة ، وشعرت بالشماتة حينما وقع بصري على حطام الساعة الكبيرة التي لا تقدر الزمن ، وحملت من جوارها صورتي وتأملتها . الاطـــار الجميل لا يزال متماسكا ، الابتسامة الجامدة لم تتغير ، ورأيت شقا كبيـــرا في الجبهة أحدثه تحطم الزجاج . وفي قطعة من الزجاج ـ كـــانت لا تزال عالقة في اطار الصورة ـ رأيت نفسي ، رأيت صدري العـاري المغبر ، وجهي الذي فارقته ملامح الابتسام ، جبهتي التي تنضح عرقا غزيرا لامعا ، ذراعي المجروحة ، دمائي المختلطة بالعرق والتـــراب فوق ساعدي .

حطمت الاطار المزخرف ، وقذفت بقطعه الى الجهات الاربع ، ثم مزقت الصورة الباسمة ، ونثرت أجزاءها الصغيرة فوق الانقاض ، واستدرت ، ومشيت ـ بقدمين حافيتين ـ رافعا رأسي الى السماء ، محدقا في الشمس .

حلب — **مصطفى زيات**